المثقف في التجريب الروائي الجزائري

The intellectual in Algerian fictional experimentation

د. مداني علي *

تاريخ الإرسال: 2021/07/16	تاريخ القبول: 2021/12/27	تاريخ النشر: 2022/05/01

الملخص:

حفل التجريب الروائي الجزائري بتنوع الشخصيات الروائية واختلافها، بل تعارضها وتناقضها، وسنقتصر في هذه الدراسة على نوعية محدّدة من الشخصيات نستكشف من خلالها مجموعة من القضايا والقيّم التي تستولي على همّ وتفكير المثقفين، وتشغل مساحة في صفحات إبداع الكتّاب.

وإذا كانت الرواية تزاوج بين الواقع والخيال فإنّ الدّارس يستطيع تقصي أحداث وحياة الشعوب، ومعرفة خصائصها من خلال منظومة قيّمها المختلفة ونسق حياتها، لذلك حاولت رصد وضعية المثقف الجزائري وتتبع مسار نشاطه والقضايا التي يشتغل عليها، وترسم خريطة حياته.

ونصل في نهاية الدراسة إلى معرفة الصورة الحقيقية لبعض الشخصيات المثقفة، ومحاولاتها الجادة في التغيير؛ ومآلات التحوّل، وإخفاقها في صراعها مع السلطة ورفض تدجينها، ومعرفة موقفها من المرأة وقضاياها.

الكلمات المفتاحية: المثقف، الثقافة، التجريب الروائي الجزائري.

Summary:

The Algerian fictitious experiment flourished with the diversity and difference of fictional characters, ratherits opposition and contradiction. In this study, we will limit ourselves to a specific type of characters through which we explore a set of issues and values that capture the intellectuals' concerns and thinking, and takes up space in the writers' creativity pages.

المؤلف المرسل: د. مداني علي madaniali2010@yahoo.com

*جامعة ابن خلدون – تيارت- البريد الإلكتروني madaniali2010@yahoo.com

If the novel is a intermarriage between reality and fiction, then the scholar can investigate the peoples' events and life and know their characteristics through a system of different values and the pattern of their lives, so I tried to monitor the Algerian intellectual status and follow the course of his activity and the issues he works on and draw a map of his life.

At the end of the study, we discover the true picture of some educated personalities, and their serious attempts to change; The consequences of the transformation, its failure in its struggle with power, its refusal to domesticate it, and its knowledge of its position on women and their issues.

Keywords: Intellectual, culture, Algerian novelistic experiment.

مقدمة:

شغلت الشخصية في الكتابة الروائية موقعا متميزا داخل العمل الروائي؛ إذ عدت أهم المشكلات السردية، وأضحى من المستحيل تخيّل عمل روائي في غياب هذا العالم المعقد؛ والذي جهد فيه الروائي ليصبغ عليها جميع المواصفات الاجتماعية التي قد يملكها أي شخص في الواقع من اسم وتاريخ وأسرة، وأن يبرز ملامحها الجسدية والأخلاقية والنفسية، وعليه؛ أضحت عظمة الروائي تقاس بقدرته على الإبداع من خلال خلق شخصياته وبعث شعلة الحياة فيها؛ إذ هي مصدر إمتاع وتشويق في النص السردي؛ وهي مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والرؤى المتعدّدة.

لا تزال شخصية المثقف في التجريب الروائي تستقطب القراء وتثير تساؤلات النقاد في محاولة استكناه مميزاتها، رغم عجزها في كثير من الأحيان عن الوقوف في وجه السّلط المختلفة، ويأسها من محاولات التغيير الذي تروم تحقيقه حين تصطدم بالواقع المرّ للمجتمع، فتلوذ إلى العزلة والاغتراب داخل مجتمع الرواية.

سبقت هذه الدراسة دراسات أخرى في تناول موضوع المثقف، نذكر منها: شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة لصاحبه عبد السلام محمد الشاذلي، وكتاب المثقف العربي والسلطة للكاتب سماح إدريس، وشخصية المثقف في الرواية العربية السورية

لمؤلفه محمد رياض وتار، وصورة المثقف في القصة القصيرة الجزائرية لمجموعة من المؤلفين صادرة عن ديوان المطبوعات الجامعية.

يقوم هذا البحث على الدراسة النّصيّة لنماذج روائية -لعدد من الروائيين- بالوصف والتأويل، في محاولة للوقوف على أساليب الكتّاب الفنية في الكشف عن صورة "المثقف" في النص الروائي الجزائري المعاصر؛ لنستكشف ونكشف كيف رسمت ريشة الروائيين صورته؟ ومدى قدرتها على التعبير عن هموم إنسان العصر وقضاياه؟ وعن كيفية انعكاس إيديولوجيا الشخصيات المثقفة في مجتمع الرواية بوساطة هذا التجريب؟

تنهض الدراسة على خطة تتمثل في تمهيد وثلاثة مباحث، يلقي التمهيد الضوء على مفهومي المثقف والثقافة، أما المبحث الأول فيتناول المثقف وصراعه مع السلطة والقضايا التي تؤرق حياته، في حين يقوم المبحث الثاني على متابعة الفعل الإبداعي وموقف المثقف من المرأة، أما المبحث الثالث فيرصد البعد النفسي المتمثل في المشاعر التي تسيطر عليه من خلال اعتناقه لبعض الأفكار الفلسفية وإيمانه بها.

تمهيد:

حاولت العديد من الأفكار والآراء -ولا تزال- معالجة المفهوم الدقيق لمصطلح الثقافة (Culture) ومفهوم المثقف (Intellectuel)، فكثر الجدال واحتدم النقاش؛ واختلفت الرؤى حولهما وتعدّدت، وانشغل الباحثون بتحديد مفهوم شامل لهما، كما تتناول هذه الدراسة مقاربة سلوك وموقف الشخصية الروائية المثقفة في التجريب الجزائري تجاه مجموعة من القضايا ذات العلاقة الوطيدة بحياة المثقف.

مفهوم المثقف والثقافة:

يعدّ المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي (1891- 1937) [Antonio Gramsci] من أبرز من اهتم بمفهوم المثقف؛ إذ يرى أنه «كلُّ من يمارس عملا تربويا ثقافيا أخلاقيا»[1]، مما يعني أن المثقفَ صاحب وظيفة تهتم، أول ما تهتم، بالعمل التربوي القيمي من خلال نشر الثقافة التي تمثل حزمة من أنماط السلوك المحسوسة، أو هي العادات والتقاليد والأعراف، ودفع المجتمع للنهوض من كبوته والتأثير فيه من خلال الفكر والعمل، فإنسان العصر يؤثر في المجتمع بثلاثة مؤثرات، كما يرى ذلك مالك بن نبي، أولا: بفكره، ثانيا:

بعمله، وثالثا: بماله[2]، والمثقف من أقوى الناس تأثيرا في غيره باشتغاله المعرفي وفكره وعمله.

كما يرى زكي العليوي أنه من الضروري صياغة مفهوم المثقف انطلاقا من خصوصية المجتمع الذي ننتمي إليه، ولا يجب استحضار المفهوم من مجتمعات أخرى وفرضها على مجتمع آخر، فيقول:«لا بد إذن من تحقيق مفهوم الثقافة داخل الوطن العربي ذاته (...) سنفكر فيها ونتحدث عنها بالمعنى العربي للكلمة، وهذا المعنى، ولو أنه مولد حديث، فهو يتميز بتلك العلاقة العضوية واللغوية والاشتقاقية بين كلمة "ثقافة" وكلمة مثقف وهي علاقة لا نجدها في اللغات الأوروبية حيث تنفصل الكلمة الدالة عن الثقافة «culture» عن الكلمة الدالة على المثقف «intellectuel» انفصالا لغويا تاما»[3]، وتاليا، فإن تفعيل هذا المفهوم يحتاج إلى عمل دؤوب؛ وعلى عدة جبهات، ونحن نرى أن هذه المشاريع -ما زالت- مجرد أفكار مؤجلة؛ ولو أنها صادمت عقولا عاملة واعية، وفكرا نشيطا ومحاولاتٍ جادة مخلصة، وجهودا متضافرة لبسط حلول الحياة الثقافية -فكرا وعملا- لوفرنا على عالمنا وقتا وجهودا تبذل اليوم من أجل العودة إلى الحياة الثقافية الجادة.

ويرى محمود البستاني إمكانية تقسيم العنصر الثقافي إلى ثلاثة أقسام، فلسفي، أخلاقي ومعرفي، حينئذ فإن القسم الأول منه؛ وهو البعد الفلسفي، فإنما يقصد به الموقف الفكري من الإنسان والمجتمع والكون، أما القسم الآخر؛ وهو البعد الأخلاقي، فهو يقصد به شبكة أو مجموع القيّم (العرفية) التي تجسد تعامل الناس بعضهم مع الآخر، فيما رسمتها المجتمعات بمعزل عن مبادئ السماء وقوانينها، أما القسم الثالث؛ وهو البعد المعرفي، فإنما يعني به ضروب العلم أو الفن وما تواكبها من أدوات ثقافية، خلا المعرفة التي تتضمن ما هو منحرف أو ما هو أداة للانحراف سواء كانت علما أو فنا[4]، وهذا يدل على مدى تشابك هذه الأبعاد في نسج شبكة المنظومة الثقافية التي يسعى كل مجتمع/طرف لإقامتها وفق ما يعتنقه من أفكار.

1- المثقف والسلطة:

لعلّ أهم قضايا المثقف التي تناولها التجريبُ الروائي الجزائري صراعه مع السلطة -المقنّعة برجال المال أحيانا- وهو ما نجده ماثلا في رواية «الرماد الذي غسل

الماء» ومع شخصية فاتح اليحياوي؛ التي أعلنت الثورة على الفساد الذي استشرى في جسد الأمة والوطن، وهي تستقدم من المجتمع مجموع الأخطاء الاجتماعية والسياسية والثقافية وحتى الأخلاقية، لتنقدها وتعلن تمردها لصالح نموذجها المعياري، فتسعى لنشر الوعي بين الجماهير وفي أوساط الطلبة، وتعرية ممارسات مافيا الفساد وبعض رجال السلطة، فكان تأثيرها على الطلبة واضحا، غير أنها كانت محل ترصد من طرف النظام ومحاولة سدّ كل المنافذ أمامها، وصدّها عن بلوغ أهدافها، فكان ذلكَ، وقد تصدع «فاتح اليحياوي» وانهارت قواه النفسية فاستسلم لخط السلطة ومن يتسربل بقناعها، وتراجع إلى خلوته ولزم بيته.

يصوّر عز الدين جلاوجي في روايته صراع المثقف ونضاله المستمر، لاجتياز طرقٍ شائكة وعرة تحفها المتاعب وتحيط بها الصعاب، وتعترضها العقبات، ونهاية ذلك السعي وهذا الجهد هي إصراره على تغيير واقع الناس وأفكارهم، وإرشاد أفراد المجتمع؛ وفتح عيونهم على الحقيقة، فـ«المثقف كان الفاعل الاجتماعي الذي انبثقت من همومه النوعية الرواية العربية، تجسيدا لواقعه المدني الجديد من ناحية، وموازاة رمزية للفضاء المدني الواعد الذي يتحرك فيه من ناحية ثانية، وتعبيرا عن حضوره المؤثر في العلاقات الجدلية للتغير الاجتماعي من ناحية أخيرة»[5]، وهكذا يعمل المثقف/فاتح اليحياوي على تقمص المقومات التي يحملها؛ والمتمثِّلة في الوعي والنقد والنضال، والتي لا يمكن أن يكون إلا بها.

حملت شخصية "فاتح اليحياوي" بذور الرفض والثورة فكريا، وحاولت تجسيدها عمليا، والرقي بالمجتمع إلى مستوى أعلى، تجسيدا لتلك الأفكار والقيم الإيجابية التي نادت بها، فقد:«كان فاتح اليحياوي في سنواته الأولى (...) يفيض حماسا ويتدفق حيوية، فألهب العقول والقلوب، ولم يكتف بفلسفات نظرية بل راح يقود الطلبة للاحتكاك بالواقع ويدفعهم للتفاعل معه وتغييره»[6]، وتحرير الإنسان من استعباد كل الطواغيت/القوى المادية والموهومة.

إن الذي يحاول تتبع حياتنا الثقافية، وما يبذله المثقفون من جهود، وما يموج في دواخلهم من حركة وديناميةٍ، يشهد ظاهرة خطيرة تجعل أغلب جهودهم "حرثا في الماء أو نفخا في الرماد"؛ إذ تعدّ ظاهرة عدم رصد الواقع ودراسته وعدم معرفته -فكريا/علميا- آفة

كل تحرّك؛ إذ يبدأ بعض المثقفين عملهم؛ أحيانا، من نقطة خاطئة لينتهوا إلى نهاية سيئة أو ليست مرغوبة.

أقبل "فاتح اليحياوي" على مجتمع "عين الرماد"، وبدّد بعض ظلماته؛ وأعاد للمجتمع دوره الحيوي، وفتح له مغاليق ما استشكل من القضايا، عند هذه اللحظات تفاءل الكثير واستبشرت ساكنة "عين الرماد" الظمآنة للعدل والحرية؛ ولكن عزيزة الجنرال/المعلَنة ومَن خلفها/الخفي رأت في هذا التحرك خطرا على مصالحها؛ ونفوذها فسعت بكل الوسائل، وفي كل سبيل لإجهاض هذه الحركة ووأدها، وللأسف؛ فإنها نجحت في سعيها و«كانت عزيزة الجنرال العقبة الكئود التي تحدته واعتبرته خطرا عليها، ومازالت خلفه حتى زجت به في السجن»[7]، فتصدع بنيان "فاتح اليحياوي"؛ وبدأ في الانهيار.

عانى "فاتح اليحياوي" مرارة تفرّق الجموع وتخليهم عن حقوقهم، كما تأثر من معاناته السجن والوحدة وعجز عن تحملهما، كما يعجز عن ذلك أي إنسان مهما أوتي من جَلد وصبر، فشعر بالوحدة أمام مخاطر ما التزم به لأن «المثقف أخذ لنفسه حق الادّعاء بأنّه يمثِّل رأي الناس، وأنه هو ضميرهم الناطق»[8]، لذلك «لم يُزعج فاتح اليحياوي دخوله السجن (...) لكن ما حزَّ في نفسه أن تنفضَّ عنه الجموع الغفيرة التي تُجمع على أن عزيزة بوطويل ثعبان عاث في مدينة عين الرماد فسادا ووصل الحد ببعضهم أن شهدوا ضده زورا وبهتانا»[9]، وكأني بالناس ليسوا بحاجة إلى العالِم والفنان، خصوصا إذا كانت البلاد تمر بظروف قاهرة في ظلّ استحكام قبضة الإرهاب الدمويّ، ومافيا السلطة القامعة، ومافيا ذوي النفوذ والمال ليبقى عزاء المثقفين الخُلَّص، أن «كثيرا من الشرفاء زج بهم فيه [يقصد: السجن]، ومازالوا يزجون»[10].

كما تزداد هذه الحال استحكاما كلّما تكالبت السياسة غير الرشيدة على الأخلاق، وكلُّما نهشت ذئاب الخيانة/الفساد أرواح الشرفاء، وكلما سادت أفكار الموبوئين، وسُلطت سياط الطغاة على المثقفين النزهاء، وقد دخلوا «معركة خاسرة لانعدام تكافؤ قوى الصراع، فقد وجد نفسه [يقصد:المثقف] غريبا في محيط قاس، بعد أن وعى المأساة وكافح من أجل الخلاص، دون جدوى»[11]، عندها يعود المثقف لجَلْد ذاته ليُلْهِبَها سِياطا، وأحيانا تقل حدّة معاناته إذا فكَّر وأعاد «قراءة واقع الإنسان العربي وموقف المثقفين منه، ومحاولتهم إصلاح الواقع..لا شيء تغير يا فاتح، هو ذا الحَجَّاج يُشهر سيْفَ الطاغية

في كل شبر من هذه الأرض (...) هي ذي السجون تَضجُّ بآلاف العقول الرافضة»[12] رغم كل الثورات فإن مَن بيدهم الأمر والنهي لم يتغيروا.

أدرك المثقف حقيقة الواقع، فغدا مصباحا وهاجّا في طريق الحياة يضيء لنا زوايا الواقع وآفاقه ويفتح مغاليق النفوس والعقول لتفكر في صناعة الحياة، ووحدَه المثقف/فاتح كان يدرك زيفَ القانون وظلمَ السلطة «كان يدرك جيّدا أن سكان عين الرماد هم ضحية مؤامرة بين من يملكون الدينار ومن يملكون القانون»[13]، غير أنه أخفق في تغيير الأوضاع لعدم تكافؤ ميزان القوى المتصارعة، ومن ثمة؛ فقد المثقف دوره القيادي والريادي في حياة المجتمع.

خرجت شخصية فاتح اليحياوي/المثقف بعد تجربة الاعتقال والسجن بشخصية ثانية، لأن «تعاقب الإخفاقات والإحباطات تؤدي بالإنسان إلى اعتزال واقعه اعتزالا كليا أو شبهَ كليٍّ، وسعيه إلى بلوغ واقع آخر لا وجود له إلا في تصوره»[14]، وبهذا تكون شخصية المثقف قد ارتكبت خطأ التخلي عن تحقيق حُلُمِها والتنازل عنه لصالح طبقة فاسدة، والانصراف عن تغيير حياة الناس -وإن كنا لا نميل إلى التهوين من الصعاب والعقبات- لأن الآمال تبقى معقودة على النخبة للعمل الجاد والمضني؛ باعتبار ذلك ممكنا.

إن أي التقاء بين السلطة القمعية والمثقف لا يمكن أن يكتب له النجاح لأن هذه السُّلَط تريد تدجينه، والمثقف -حامل المبادئ وصاحب المواقف المشرِّفة- لا -ولن- يرضى ببيع ضميره مقابل حفنةٍ من دريهماتٍ؛ أو بريقِ شهرةٍ زائفة، فها هو "عياش لَبْلوطة" يخاطب "فاتح اليحياوي" قائلا:«أنت تعرف يا فاتح أنك مفخرة المدينة...لقد شرَّفنا السيد الجنرال فأرسلنا إليك..يحتاجك في خدمة... وللجنرال تاريخ حافل بالأمجاد لذلك قرَّر أن يكتب مذكراته [وهو] ...لا يحسن إلا أن يخطب...أما الكتابة ففيكم البركة. [ثم يقول السارد]:إلى متى يستمر مسلسل الكذب والتدجيل وتزيين التاريخ؟ وإلى متى يبيع الكتّاب والأدباء أقلامهم مرتزقة للتافهين والطواغيت؟»[15]، وفي هذا دليل على استحالة الالتقاء والتوافق بين المثقف الذي أبى أن يسبِّح للآمر الناهي في المدينة وبين السلطة الاستبدادية.

يبدو أن الروائي -قد نجح في- كشف العوائق التي حالت بين المثقف وأداء دوره في تغيير واقع المجتمع نحو الأرقى، وقد تبين لنا أن العقبات كانت برانية/خارجية وليست

جوانية/داخلية، كما كشف عن جوهر الشخصية المثقفة وما تحمله من قيم سامية، ومبادئ عليا، وتلك هي الصورة المثلى لرجل العلم والثقافة، فهو قدوة الأجيال؛ ومحط الأنظار، وأن هذه القيّم جديرة بتمثُّلها من كل فرد، إلا أنها على صاحب الثقافة والعلم آكد وألزم، وإن كنا لا نعدم وجود بعض الشخصيات المثقفة المنحرفة -في بعض الروايات الجزائرية- التي سقطت في مستنقع العبث، وانغمست في وحل الخطأ تحت طائلة الظروف الاجتماعية والنفسية وحتى الاقتصادية، وإن كانت الظروف لا تبرّر إتيان المفاسد.

مع أن تخلّينا عن ثقافتنا لن يزيدنا إلا انتكاسا وتدهورا، فهدم العلاقات القديمة والاستعاضة عنها بأخرى جديدة -وافدة- لن تثمر في بيئتنا، ولأن بعض الشخصيات في التجريب الروائي الجزائري «شنت هجوما عنيفا على التراث بقيمه وتشريعاته، لحساب تشريعات معاصرة وقيم جديدة، تقوم على أساس دوافع الإنسان ورغباته (...) بدلا من أن تقوم بمراجعة التراث للكشف عما فيه من أفكار تخدم التقدم والتطور، وإنسانية الإنسان، وأعلنت رفضها الشامل للتراث، وأدارت ظهرها للماضي، فاغتربت في المستقبل كما اغتربت الشخصيات المثقفة التي مثّلت التيار المحافظ في الماضي، وانفصلت عن الناس، وتاهت وآلت في النهاية إلى الإخفاق والسقوط»[16]، وعليه؛ فإن رفض المجتمع للقيم الجديدة هو رفض للمشروع الثقافي المتغرب ولأصحابه.

2- المثقف والمرأة:

تقدّم رواية "الانهيار" لـ"محمد مفلاح" شخصية "محفوظ" الكاتب الذي تتلبّسه مغامرة الكتابة إلى حد الفناء فيها، حتى غدت من أقدس طقوسه، فهو يعيشها بأحاسيسه المرهفة والمتوترة، فكانت درعه الواقية من القبح -الواقعي- الذي يأمل في الخلاص منه، وتحقيق حلمه «كتابة رواية»، والكتابة برأي أبي حيان التوحيدي «فعلٌ حر وعقلي»، فهي فعل تحرر، وعليه فإن من ينتج النص عليه أن ينتج التغيير، فهل تتمكن شخصية محفوظ من فعل التغيير؟

إن شخصية "محفوظ/المعلم" الروائية لم تستطع الانخراط في الواقع؛ والاندماج مع مجتمع الرواية، وعانت حالة اغتراب حاد، فعجزت عن مواجهة الواقع وأخفقت في التصدي لمشكلاته، على الرغم من أن طموحها لا حدود له، وإلى ذلك يشير السارد قائلا:« وطموح محفوظ لا حدود له (...) لا معنى لحياته إن لم يكتب»[17]، وقد نسجت هذه

الشخصية أحلامها من عالمها الخاص الذي يتسق مع أفكارها وتطلعاتها، ويحقق لها بعض التوازن النفسي، ويخفف عنها شعورها بالإحباط.

غير خافٍ أنَّه كلَّما ارتقى العقل البشري وتفتحت آفاقه وازدادت مداركه، كلما ازداد تمسكا بمبادئه، فـ«محفوظ معروف في الحي باستقامته وسلوكه الحميد»[18]، وأنه «لا يفكر مثل أبناء الحي ولا يجري وراء الملذات»[19]، ولأن محفوظ/المثقف يؤمن «بمفهوم «الفن رسالة» وعليه أن يبلغها للإنسانية ولن يؤمن بمفهوم الفن للفن»[20]، والقراءة هي عصب بناء حياة المثقفين في العالم، ولنا أن نتصور كيف ستكون حال وحياة أمة لا تقرأ ولا تكتب! ولعل أسمى مقاصد المعرفة هي تحقيق علم القيّم «لقدرته على ضبط السلوك البشري وتوجيهه نحو غايات متكاملة سامية يعبر عن أسمى مظاهر الوجود الإنساني»[21]، مما يعني أن الغاية من القيم هي القدرة على التعايش مع أفراد المجتمع، وخلق فرص التوافق مع المقاصد الشخصية وإصلاح النفوس من أجل الارتقاء بأحوال الناس، والسمو بهم إلى آفاق الجلال.

لقد اتخذ "محفوظ/المثقف" موقفين متباينين من المرأة تبعا للظروف المحيطة به؛ وأزمته النفسية، في معاناته الشعور بالوحدة والإحباط نتيجة عدم تحقيق هدفه، ورأى أنّه «أخطأ حين اقترن بها [يعني:زوجه]، فهي لا تفهم في الثقافة والفن»[22]، مما يعني أن المرأة تمثّل حجر عثرة أمام طموحات المثقف الذي يسعى لتحقيق تطلعاته المشروعة، ومن هنا؛ أخذت شخصية "محفوظ" تمارس؛ في بداية الأمر، الظلم على المرأة/الزوج فحرمتها من حقوقها وخدشت كرامتها الإنسانية؛ وصارت لا تمثل ذلك الكائن الإنساني المتسم بالقوة/الكيد والضعف/عاطفة الحب، بل إن الخطاب حمل تجليات القهر الذي تتعرض له المرأة، ويمكن للقارئ أن يلمسه في هذه النغمة الآسية المعبرة عن آلام المرأة الدفينة التي اكتنزتها منذ فترة:«إنها [نقصد:ربيعة زوج محفوظ] لا تحب أن يحترق قلبها الرقيق ويذبل شبابها في كنف بيت هذا الرجل الغريب الذي لا همَّ له سوى الكتب والأوراق»[23]، وقد امتدت أساليب الإهانة وأنماط الاستلاب لتشمل إنسانية المرأة وإرادتها في التعبير عن ذاتها.

إلا أن "محفوظ/المثقف" ينصاع؛ في المرة الأخرى، لصوت العاطفة وصرختها المتأججة داخله؛ في الآن ذاته، فيندفع إلى الخمر والجنس؛ ليبدد بهما وشاح الحزن الذي

يغلّف حياته في غياب صوت العقل؛ وانطفاء جذوة الفكر، حينئذ فكّر في زيارة العشيقة التي أصبح -في لحظة ضعفٍ- يشتهيها، فأمسى كمن استجار من الرمضاء بالرمضاء، «أنا محفوظ..افتحي الباب يا خضرة»[24]، وهكذا يسقط المثقف في مستنقع القبح/الشر حيث الهوى واللذة العابرة المنتصرة على العقل/الفكر، فهيمنت نزعاته الجسدية على حياته الروحية.

كما يبدو حرص الثقافة الذكورية على حماية أحقيتها في الكتابة/العلم دون المرأة جليّا، وهذا يبين لنا «مدى قدرة النسق على التغلغل إلى بواطننا والتحكم بردود أفعالنا، كما يوضح مدى سيطرة النسق على عاداتنا القرائية والذوقية، وإلاّ كيف نتقبل خطابا يتضمن الهيمنة ويدعو إلى عبودية الفرد وينطوي على فردية مطلقة وحس متعالٍ ينفي الآخر»[25]، في وقت يدعو فيه كل المثقفين، ناهيك عن الجمعيات المدنية النسوية، إلى حرية المرأة والمطالبة بتحرير يديها من كل قيد، ولعلّ هذا التناقض يُبِين عن نفاق ثقافي ذكوري مضمر.

لعلّ المثقف/محفوظ حين يعجز عن الصدام يلجأ إلى الفرار عبر البحث عن المتعة الحسية -الخمر ثم الجنس- والتستر وراء المظاهر الكاذبة/المنافقة، عندئذ تقع البراقع وتنزاح الحجب وتظهر حقائق الأفكار المطروحة وأصحابها، فالمثقف في مجتمع النفاق يسير إلى عالم القلق والضياع، ويغزوه الشعور بالإحباط والتعاسة المتولدة من سوء فهم الأمور، واللهاث باتجاه الخط العكسي للحقيقة الكلية، فمحفوظ «كره كلام أهل الحي الذين لا يعرفون ما معنى الحرية الشخصية. وما دخلهم في شؤونه الخاصة؟ (...) أين هي الحرية التي كتب عنها الفلاسفة والمفكرون؟»[26]، ولذلك كثيرا ما تصاب بعض الشخصيات -المثقفة- بالتشظّي والانفصام، فتعيش أزماتٍ حادةً تتمزق فيها الأنا إلى أنوات، والذات إلى ذوات، وتفشل -في نهاية المطاف- في التوفيق بين الجانبين النظري والعملي، فتدنو إلى السلوك الغريزي وتنأى عن الكيان الإنساني الراقي.

يتم تدجين الأمة ثقافيا، تحت مظلة حرية الفكر بوصفها قيمة إنسانية وأداة للنهضة والارتقاء، ثم التشكيك في هويتها، وتشويه قيّمها عن طريق كثير من الوسائل، والفن أحد هذه الوسائل؛ إذ «لم يكن الأدب دائما باعثا للقيم الإيجابية في النفس الإنسانية»[27]، ومن هنا يظهر تفاوت المجتمعات البشرية فيما بينها تبعا لما تعلو في سمائها

من قيّم ومفاهيم، وتبعا لمدى تفسيرها وتأويلها لها، والتفاعل معها، والاستجابة لحقائقها أو رفضها، فـ"ربيعة" زوج "محفوظ" تكشف حقيقة مجتمعها المراوغ ، والمخادع المتلوّن، فتقول: «إنها لم تستطع فهم سلوك هؤلاء الذين يتحدثون كثيراً عن الأخلاق ولا يفعلون شيئا.. يتحمسون..يغضبون ثم يجدون أعذاراً واهية يبررون بها سلوك المخطئ.. ويعاملونه بتحفظ في بداية الأمر ثم يغفرون له كل الخطايا والحماقات»[28].

إذا كانت الثقافة قلعةً تقي صاحبها من هجمات الآخرين، وجدار صد تحميه من العواصف الاجتماعية وتحولاتها، والتي أحدثت لدى بعض مثقفي العصر انقلابا وفوضى في الجهاز المفاهيمي، فإن الشخصية الروائية المثقفة ترى في ممارسة الجنس خارج الأطر القانونية حرية شخصية، وقد رأى ذلك "محفوظ/المثقف" فقال:«أنا حر في سلوكي»[29]، ليندفع المثقف -أحيانا- نحو الحرية الفكرية والجسدية غير عابئ بالقيّم السائدة، حتى - إنه ليكاد- يتحول إلى عاهر محترف، ويهرع إلى التخلي عن الجميل الذي يمثل جوهرنا، وقد ساعد على ذلك تجاهل الفعل النقدي في كشف عيوب الخطاب المتقنع بالجانب الفني؛ إذ تمّ «إهمال النقد لعيوب الخطاب وانشغاله بالجماليات دون القبحيات (...) فوقع في لعبة التبرير والتخريج وتصوير الباطل في صورة الحق»[30]، وتم إخضاع النقد للشرط النسقي المتقنع بقناع الفنية والجمالية.

ربما يحتاج، واقعنا المعاصر إلى إعادة بناء منظومته الحضارية والثقافية التي انفصل فيها العلم/الثقافة عن قيّم الخير، فكان وبالا على المجتمع والفرد، وهذه القيّم ليست قيّما نظرية مثالية تجريدية بقدر ما هي قيّم تستجيب لمشاكل المجتمع وقضاياه، وهي ليست فكراً يبتغي المدينة الفاضلة التي لا وجود فيها للشر؛ لاستحالة ذلك، كما أنّها لا تعادي؛ ولا تستعدي، المدنيّات والثقافات الأخرى، والجدير بالملاحظة أن المعلم/محفوظ قد تخلى عن كل المُثل السامية التي اتصف بها أو ادّعى الالتزام بها، فإذا بزوجه "ربيعة" تعرّي سوأته، حين يردّد الراوي:«وأخيراً كشف محفوظ عن وجهه الحقيقي. كان في نظرها ملاكا. خدعها بمظاهره. لم يكن إلا شخصا قذراً. ستحطم واجهته المزيفة»[31].

لقد كشفت محنة "ربيعة" زيف/نفاق محفوظ/المثقف، وهذه دلالة لا يرقى إليها شك عن انفصامٍ في شخصية "محفوظ المثقف" وتباين بين المظهر/المُعلَن وبين

المخبر/الخفي، وتعلُّق شخصية بعض المثقفين بالألفاظ والسفسطة والأشكال والصوّر، وإعراضهم عن المحتويات والجواهر وعن حقائق الأمور.

ليستمر الروائي "محمد مفلاح" في تقديم تقارير مباشرة عن شخصية المثقف وسيرته؛ بعد أن أغرقه في مستنقع الخطأ/الإثم، ليصل به إلى مصيره المحتوم، ونهايته المأساوية، وإن تأخر الزمن به، وأي فرد -أو مجتمع- تقوده غريزته؛ وتطغى عليه شهوته لابد أن يتحطم وينهار في النهاية (السجن لمحفوظ القاتل)؛ لأنه لا عمل بدون جزاء، ولا حرية بدون ضوابط، وإلا كانت فوضى مدمّرة، ولعلّ البوصلة التي تضبط الحياة هي «العقل الذي يشكّل مبعث القيّم والمعايير المطلقة التي تنبني عليها فلسفة الأخلاق»[32]، وهذه إدانة صريحة للعقل/للمثقف الذي يبتغي التحرّر من القيود الاجتماعية والانفلات من ضوابطها التي تنظم سلوك وحرية الإنسان، وإلا سـ«يكون لسقوطه دوي صاخب، سواء أكان هذا السقوط عن طريق الاحتراق في حمى الجسد، أم الانتحار يأساً واحتجاجاً»[33] على السلوك غير السّوي والموقف الخاطئ.

إذا اختار المثقف ثالوث القيّم -الحق، الخير والجمال، وبمحض إرادته- فإنّه يقي نفسه ومجتمعه من الانهيار؛ إذ على ذلك الثالوث سنقيم أركان بيت أو معادلة السعادة الإنسانية، لأنه كما يرى جاك منود، ونقلا عن سمية بيدوح: «لا وجود لمجتمع يمكنه أن يعيش دون دليل أخلاقي مؤسس على قيّم مفهومة ومقبولة ومحترمة من طرف الأغلبية»[34]، وما أحوجنا، اليوم، إلى هذا الدليل ونحن نشهد طفرة التحوّل المرجح لكفة المادة والشهرة على حساب كفَة المُثل النبيلة والإبداع الذي يكون في صالح الإنسانية.

إذا كانت رواية "الانهيار" تشير إلى الأزمة الحضارية للمثقف الجزائري وصراعه المرير مع مظاهر الحاجة وحال العوز التي تحيط به من كل جانب، ولئن كانت الرواية تميط اللثام عن صورة المثقف الذي أرهقته الخيبة وأعياه الإخفاق وأضناه الفقر، فإن ثقافتنا ترفع من شأن المثقف/العالِم وتمنحه «قيمة خاصة بحيث تطالب بتقديره وتفضيله على الآخرين في مختلف مجالات التقدير الاجتماعية، حتى إنها لتطالب -على سبيل المثال- بأن يتعامل معه اقتصاديا بشكل يفضل به عن الآخرين، وتطالب بتقديم مزيد من الاحترام له في المجالس وسواها»[35]، بيد أن هذه الخاصية أو الميزة -الطبقية إن صح القول- ترتبط بالمبدأ العام وهو الالتزام بقضايا الأمة ومُثلها العليا.

3- المثقف و إيديولوجيا الانتهاك:

كثيرا ما تتخذ الشخصية الروائية المثقفة فلسفتها واختياراتها الذاتية متكأ لها، وتعتمد على سلوكها الشخصي الذي ينبع من ذواتها ويصدر عنها؛ وإن تعارض مع سلوك المجتمع، فأغلب هذه الشخصيات -الروائية- تجعل من حريتها «مبدأ يتحدد على هديه كل ما يتعلق بسلوكه وسيرته وتاريخه، ومواقفه مع الجماعة التي يعيش معها»[36]، ولا يهمها الاستقرار الاجتماعي بقدر ما يهمها تحقيق اختياراتها/رغباتها، فها هي شخصية "المحامي" في رواية "بخور السراب" لـ"بشير مفتي" تقرّ بجحودها لهذه المؤسسات الاجتماعية، وتقول: «سأتعلق بهذه المرأة أو بتلك وماذا بعد؟ ماذا سيكون مصيري (...) الخضوع لكل هذه المؤسسات التي أنفر منها؟ القبول بقواعد لعبة لم أقنعها أنا لنفسي ولكن جرت العادة والعرف والطبيعة البشرية كما يقال على سنتها تلك»[37]، وعليه؛ فإن رفض المثقف للمؤسسة الزوجية كقيمة إنسانية والطعن فيها دلالة واضحة على تمرد هذه الشخصيات على قوانين المجتمع، وضوابطه الاجتماعية.

كما ترصد الأعمال الروائية لـ"بشير مفتي"، الكثير من صور القبحيات في هيئة الجماليات، كما تكشف هذه الأعمال -في الآن ذاته- المؤثرات الفلسفية والفكرية الداعية إلى رفض منظومة أعراف المجتمع.

ترفض بعض الشخصيات الروائية المثقفة الماضي/التراث رفضاً مطلقاً، وترى أن دواعي/أسباب تخلف الأمة إنما يعود إلى المجتمع الذي لا يزال معجبا ومبهوراً بالماضي، ومشدوداً نحو التراث، وما يتميز به من أعراف ومعتقدات، فيستخَّف هذا النوع من الشخصيات -أحياناً- بقيّم المجتمع أو ما يعرف بـ«العيب»؛ إذ تبدي "ليليا عياش/المثقفة" استخفافها وتذمرها من أعراف مجتمعها، فتقول:«كنت استهتر بالقيم والتفاهات التي تضبط حياة الناس وتفكيرهم، والتي تضع لهم حدودا تمنع عليهم تجاوزها، كنت أخترق كل الجدران الموصدة، والأبواب المغلقة»[38].

مما يعني أن بعض الشخصيات الروائية المثقفة لا تريد الحرية حسب، بل تريد التحرر من كل القيود؛ والتخلي عن كل الضوابط، وقد أخذت شخصية "فيروز" المثقفة تتمرد على عادات المجتمع، ولم يعد يُثنيها شيء عن انتهاكها، بل غدت ذاتيتها متضخمة، وهي «تستمد مبادئها وقوانينها من داخلها، وهي لا تسير بقوة القوانين والعادات، وإنما تسير

بقوة الإحساسات والعاطفة (...) وكأن التمرّد صار غاية عندها»[39]، فهي تبحث -عن- أو تريد الحرية المطلقة؛ والعبث في مجتمع يحترم المبادئ، لتجاهر الشخصية الروائية بحاجاتها الجسدية المحرمة، دون أن تُعير قوانين مجتمع الرواية أدنى اعتبار؛ إذ تقول فيروز للكاتب (ب) عندما طلب منها الزواج:«الزواج هو عدو كل مبادئي التي أؤمن بها (...) أفضل أن أعيش معك كل تجارب العشق المجنونة والغريبة على أن ندخل في عمليات الامتثال لسلطة هذا المجتمع الغبي والتافه»[40]، فبعض الشخصيات الروائية المثقفة لم تتمكن من التكيّف مع الواقع والاندماج في مجتمع الرواية، وعانت من حالات الاغتراب والقلق والإحباط، فعجزت عن مواجهة الواقع، وأخفقت في التصدي لمشكلاته.

أما شخصية "المثقف/محفوظ" في رواية "الانهيار" لـ"محمد مفلاح" فإنها تميل كثيرا إلى الوحدة، وتعيش حالةً من القلق والضياع، وعدم التكيّف مع المحيط الأسري والاجتماعي، كما تولدت غربته/اغترابه نتيجة استعلائه على الآخرين، بعد أن ميّز نفسه عمن أسماهم من أفراد مجتمعه بـ«الأموات»؛ فتكثّفت غرباته المكانية والنفسية، وبات يعيش في وحدة وعزلة بعد أن يئس من الزوجة؛ ومن المجتمع، ومن تجاوز غربته في آن، فاندفع إلى إعلان القطيعة معهم تحت وطأة معاناته، وضغط الاغتراب الذي يتفاعل في داخله، فقال:«لا بد لي من العزلة»[41]، و«أصبح يعيش غريبا»[42] في طقسه ومناخه الثقافي، وبعيدا عن حياته الواقعية حتى يحقق لنفسه توازنها ووجودها.

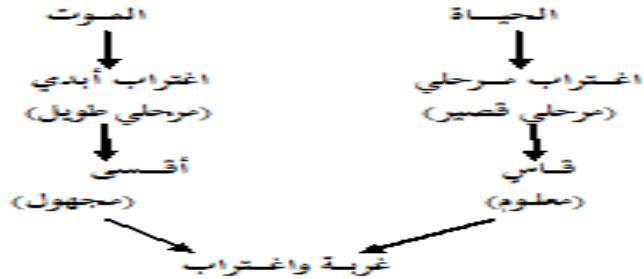

أخيرا، يمكنني أن أقول: إنه لا يختلف اثنان في الإقرار بإيجابيات الحرية بمختلف عناوينها وصورها، وأهميتها في تنمية الوعي والثقافة، وتوسيع دائرة الاطلاع على تجارب الشعوب؛ والمجتمعات الأخرى، وفي التقدم والارتقاء بالمجتمع في شتى مناحي الحياة، بيد أن

الأمر الخطير هو أن يُساء توظيف تلك المصطلحات، فتغدو بمثابة معول هدم وأداة تخريب وتدمير.

خاتمة:

بعد رحلة المسح والبحث والاستقراء توصلنا إلى جملة من النتائج، يمكن إيجازها في الآتي:

1/ عرض الروائيون مواقف شخصيات مثقفة وقفت من هموم وقضايا الإنسان والمجتمع السياسية والاجتماعية والثقافية وحتى الحضارية مواقف متباينة ومتعارضة.

2/ صوّرت لنا هذه الروايات نماذج مختلفة للشخصية المثقفة وتبنّيها لأطروحات الفكر الغربي وفق النمط المتباين والمتعدد؛ إذ مثّلت بعض الشخصيات الأفكار والمواقف الحضارية للغرب والدفاع عن هذه الأفكار والتمسك بها، في حين رسمت روايات أخرى شخصيات مثقفة متشبثة بالتراث وإن بقيت خارج إطار التجديد.

3/ بالنسبة لموقف الشخصيات المثقفة من قضايا المرأة وهمومها فثمة شخصيات مارست فعل القمع والظلم ضد المرأة، فسلبتها إنسانيتها وكرامتها ورأت فيها ذلك الجسد الذي يفيض شهوة ولذة ومتعة، ووجدنا نماذج أخرى تصوّر المرأة المثقفة التي ترنو إلى الحرية، والانفلات من قيد الأعراف وأسر الضوابط الاجتماعية، والتمرد على منظومة القيّم فطالها النبذ الاجتماعي.

4/ عانت الشخصية المثقفة المتشبعة بالفكر الغربي والمتبنيّة للفلسفة الوجودية قلقا شديدا، واضطرابا حادا، واغترابا تجرعت مرارته فكان مآلها الانكسار والإخفاق.

الهوامش:

1 -. عمار بلحسن: الأدب والايدولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص:52.

2 - ينظر، مالك بن نبي، شروط النهضة، تر:عمرمسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة وللتوزيع والنشر، ط4، دمشق، سوريا، 1987، ص:83.

3 - زكي العليوي، المثقف مداخل التعريف والأدوار، الانتشار العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2003، ص:50.

4 - ينظر، محمود البستاني، الإسلام وعلم الاجتماع، مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان 1994، ص:166-167.

5- جابر عصفور، مواجهة الإرهاب قراءات في الأدب المعاصر، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، 2003، ص:53.

6- عز الدين جلاوجي، الأعمال الروائية غير الكاملة (رواية الرماد الذي غسل الماء)، دار الأمير خالد للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص:195.

7- عز الدين جلاوجي، الأعمال الروائية غير الكاملة (الرماد الذي غسل الماء)، ص:195.

8- محمد عبد الله الغذامي، الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص:56.

9- عز الدين جلاوجي، الأعمال الروائية غير الكاملة (الرماد الذي غسل الماء)، ص: 196.

10- م ن، ص ن.

11- محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر مرحلة الرواد دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999، ص:5.

12- عز الدين جلاوجي، الأعمال الروائية غير الكاملة (الرماد الذي غسل الماء)، ص:231.

13- م ن، ص ن.

14- محمد رياض وتار، شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، ص:109.

15- عز الدين جلاوجي، الأعمال الروائية غير الكاملة (الرماد الذي غسل الماء)، ص:310-311.

16- محمد رياض وتار، شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، ص:39-40.

17- محمد مفلاح، الأعمال غير الكاملة (الانهيار)، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص:16.

18- م ن، ص:16.

19- م ن، ص:24.

20- م ن، ص:08.

21- محرز الحسيني، الصراع الفكري بين المادية والروحية، دار لوران للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، د ت، ص:39.

22- م ن، ص:11.

23 - م ن، ص:10.

24 - م ن، ص:57.

25- عبد الله محمد الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص:248.

26- محمد مفلاح، الأعمال غير الكاملة (رواية الانهيار)، ص:79-80.

27- محمد قرانيا، الستائر المخملية دراسة الملامح الأنثوية في الرواية السورية حتى عام 2000، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2004، ص:318.

28- محمد مفلاح، الأعمال غير الكاملة (رواية الانهيار)، ص:76-77.

29- محمد مفلاح، الأعمال غير الكاملة (الانهيار)، ص:100.

30- عبد الله محمد الغذامي، النقد الثقافي، ص:112.

31- محمد مفلاح، الأعمال غير الكاملة (الانهيار)، ص:76.

32- أحمد عبد الحليم عطية، الأخلاق في الفكر العربي المعاصر، ص:106.

33- حسان رشاد الشامي، المرأة في الرواية الفلسطينية 1965-1985 دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1998، ص:157.

34- سمية بيدوح، فلسفة الجسد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 2009، ص:106.

35 - محمود البستاني، الإسلام وعلم الاجتماع، ص:148.

36- محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، ص: 71.

37- بشير مفتي، بخور السراب، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2004، ص:89.

38- بشير مفتي، خرائط لشهوة الليل، ص:13.

39- عاطفة فيصل، تحولات الخطاب الأنثوي في الرواية النسوية في سورية، ص:29.

40- بشير مفتي، المراسيم والجنائز، ص:69.

41- محمد مفلاح، الأعمال غير الكاملة (الانهيار)، ص:14.

42- محمد مفلاح، الأعمال غير الكاملة (الانهيار)، ص:51.